الثابت والمتحول في قضايا الهجرة

من خلال رواية "الحرائق"

محمد رحـــو

باحث في الأدب المغربي

مقدمة:

إذا كانت الهجرة من المواضيع المطروحة في طريق الرواية المغربية، فقد أشبعها الروائيون المغاربة بحثا، وأفاضوا في تناولها، فإن التهجير لم تنشط فيه الأقلام بالشكل الذي يستوفيه حقه ويحيط به إحاطة شاملة، نظرا لتعدد جوانبه واختلاف مناحيه، وفي هذا الصدد تأتي رواية "الحرائق"(1) للمبدع حسن عزماني لتسد فجوة من الفجوات على هذا المستوى، وتثير موضوعا جديدا من مواضيع الساعة ومستجداتها التي طفت على سطح الواقع المغربي، وبهذا فهي لم تتوقف عند الهجرة بثوابتها المعهودة والمعروفة إلا ما جاء على سبيل استحضار سياقات الأحداث، وما تفرضه سيرورتها، وإنما تعرضت لتحولاتها وكشفت عن وجهاتها الجديدة سواء من ناحية المكان أم الغاية، وجهات لم يكن للمغاربة سابق عهد بها، ودوافع وغايات لم تثر فضولهم من قبل، فهجروا إليها قسرا بعد أن أعمت الإديولوجيات أبصارهم، واستولت الأجندات السياسية على قلوبهم. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ما اعتبر صورا ثابتة ليس الغرض منها ترسيخ الفعل وتثبيته أو تثمينه، ولا إعطاءه الشرعية، فهذه الصور لا تتعدى كونها مألوفة في المجتمع المغربي، تستحضرها الرواية بكثير من الحسرة لتدينها وتنتقدها إلى جانب أخرى زاغت بالهجرة عن مقصدها الصحيح.

1- الثابت في الهجرة المغربية:

افتتح السارد الرواية بحدث مغادرة شخصية علال لمدينة بركان القابعة في شرق المغرب إلى "مدينة حديثة صغيرة مهمشة مغمورة فقيرة يعتاش أهلها على صيد السمك وما تجود به القوارب، قوارب الموت سواء أكان المنتوج سمكا أم إنسانا"(2) والتي لم تكن غير مدينة الفنيدق بالشمال المغربي قصدتها الشخصية "علال" للبحث عن الابن "المكي" الذي غاب عن البيت وانقطعت أخباره. وما بين نقطة البداية ونقطة الوصول اعتملت الكثير من الأحداث الطارئة التي غيرت مجرى السرد وألقت الضوء على ظاهرة الهجرة، ظاهرة لم تكن بالغريبة في ظل الأوضاع الاجتماعية التي يعيشها الشباب المغربي الذي انسدت في وجهه الآفاق، وعانى ولا يزال من البطالة والفقر واليأس من السياسات المتعاقبة... فأصبح يرى الحل في الهجرة نحو النعيم المفقود أوروبا بمدنيتها وحضارتها وقوانينها وامتيازاتها. ولما كان الطريق إلى هناك غير ميسر، تعترضه ترسانة من القوانين والإجراءات التي تفوق امكانات الشباب، وتكاد تضع حدا لأحلامهم، لم يجدوا بديلا عن تحقيق هذه الأحلام إلا بالتمرد على هذه القوانين وركوب قوارب الموت نحو أوروبا.

إن هذه الرحلات التي تمر عبر البحر الأبيض المتوسط، صارت مألوفة لدى الشباب المغربي، ونتائجها معروفة، فالكثير منهم لا يبلغ منتهاه، ولا يصل إلى محطته الأخيرة المأمولة، فيضيع أصحابها في عرض البحر ويصيرون لقمة سائغة في فم الحوت، وبذلك فإن هذه الهجرة بدل أن تحقق أمنيات الشباب وأحلامهم، فهي تخلف لهم ولعائلاتهم مآسي قد تمتد في الزمن فتصبح جزءا من حياة العائلات وخاصة حينما تنقطع أخبار الأبناء، ولا يعرف لهم اتجاه، فتبدأ رحلة البحث عن المفقود حيا أو ميتا كما هو حال عائلة المكي التي أبى الأب علال إلا أن يتقصى أخبار ابنه الغائب ويتبين وجهته،

فانطلق في رحلة البحث عن المجهول التي قضت بغيابه هو الآخر، فينكأ بذلك الجرح الذي سيزداد انفضاحا بغياب الجد الذي سينطلق بدوره في رحلة البحث عن الابن والحفيد.

ولعل ما يحكم باعتيادية هذه الصورة من صور الهجرة أيضا هو توجه الأب علال نحو الشمال مباشرة بعد غياب الابن، فلم يحمله تفكيره إلى وجهة أخرى ولا حتى في حدث آخر قد يكون وراء هذا الغياب، فالهجرة أو ما يعرف عند العامة ب "الحريك" بمدن شرق المملكة هو لسان حال الشباب وموضوع مجالسهم، بل هو حلمهم الأبدي الذي لا بديل عنه. وما دام الأمر كذلك فقد تجندت لهذه الهجرة السرية شبكات متخصصة ومنظمة، تجعل لها وسطاء عبر مختلف المدن يتقنون فن القول ويبرعون في اصطياد ضحاياهم. فقد خلقت هذه الهجرة سوقا تجارية رائجة تدر على أصحابها أرباحا طائلة، سوقا بشرية بضاعتها أرواح الشباب وأحلامهم الضائعة، مركزها في الشمال المغربي وفروعها ممتدة في كل أنحاء الوطن بمدنه وقراه، ونخاسوها معروفون لدى القاصي والداني، فهم من مالكي المال والجاه.

لهذه الأسباب وغيرها، فإن الهجرة بهذه الصورة، وبهذا التنظيم المحكم، تجعل من تسميتها بالسرية أمرا غير مقبول. يتساءل السارد: "هل السرية تكون مادة إعلامية مكتوبة ومسموعة ومرئية؟ هل السرية تكون محور لقاءات وطنية وإقليمية ودولية؟ أوليس المشرفون على هذه الهجرة هم أناس يفترض فيهم محاربتها"(3)، وقد دحض هذه التسمية أيضا من داخل سياق الأحداث، وذلك حين طلب علال من الشرطي تمكينه من أي خبر يفك شفرة غياب الابن، فأشار عليه "بالذهاب إلى مقهى مجاور، حيث ينزل الوسطاء صيادو البسطاء والسياسيون الحذاق منهم والمغفلون، تجار الذمم وبائعو الوهم"(4). أو ما جاء على لسان أحد السماسرة وهو يحاور الأب والجد الباحثين عن ابنهما المكي قائلا

:"هل تعرفان ولد العساس راه معايا في الحزب، وقفو معاه وما يخصكم خير راجل ونص والله يعمر ليه الدار"(5) فهؤلاء النخاسون إذا ينشطون نهارا جهارا، ولا يخافون في ذلك إلا ولا ذمة. يستغلون مناصبهم للمتاجرة في الذمم بشتى الوسائل والطرق، بدفعها نحو قوارب الموت، وبشراء أصواتها خلال الانتخابات، ومن ثم يتحكمون في نبض المجتمع.

وبهذا يكون السارد قد وضع الإصبع على الجرح، فهو يبحث في جوهر الحقائق لما سمي هجرة سرية ويتلمس دقائق الأشياء لسياسات عرجاء يحتار العقل في المكاييل التي تكيل بها، إذ كيف يمكن أن نحارب الشيء ونقضي عليه بتتبع فروعه وكسرها دون اجتثاثه من أصله؟ كيف يمكن أن نحارب هذا النوع من الهجرة بحراسة السواحل فقط وإجهاض الرحلات فور إقلاعها دون الاكتراث بمن يخطط ويهيئ لها وسائل مادية ولوجستية تفوق كل التصورات؟ ألا يكون هؤلاء الذين يملكون مفاتيح هذه الهجرة هم الذين يحاربونها في السواحل وبذلك يتحكمون في اللعبة أشد التحكم؟. تساؤلات عديدة تلك التي يحرض عليها السارد في الرواية، تغوص بنا في متاهات لا حد لها لمغرب الاستثناءات.

إن وسائل الإعلام والتقارير اليومية لحراس البحر وحتى الأوساط الشعبية، كلها تتحدث عن كوارث حقيقة يروح ضحيتها شباب مفعم بالحيوية، ولكن بالرغم من كل ذلك تظل فئة عريضة من هؤلاء، وحتى من تقدم بهم السن أحيانا، مصرة على المغامرة واختبار حظها، فإما الوصول إلى هناك أو الهلاك في البحر، اختياران لا ثالث لهما يشكلان في النهاية "الاستثناء المغربي"، استثناء خلخل القاعدة وتجاوز المنطق الذي يجعل من الهجرة نزوحا من الموت وتوقا إلى الحياة، غير أن الصورة التي يرصدها السارد تفيد العكس، فتجعل من الهجرة فرارا من الحياة نحو الموت، وهذا ما دفعه إلى التساؤل: "لماذا يهجر الناس الاستقرار والطمأنينة، ويرتمون في أحضان مجهول غير مأمون الجناح ولا

محسوب العواقب... فما السر في هذا القلق المستشري كالطاعون في نفوس الناس؟"(6). هذه الأسئلة أو بالأحرى التساؤلات الاستنكارية تحمل أجوبتها الحقيقة بين ثناياها، لم يسع السارد من خلالها إلا إلى استفزاز ذهن المتلقي، ويتأكد هذا الاستفزاز من خلال جمعه بين عدد من المتناقضات في قوله: "لا الجو صحو، ولا الأرض مرتوية ولا الرخاء يعم البلاد ولا الناس يشتكون من الغلاء، فلا الأمن مستتب ولا الجريمة تسيد المشهد، يفر الناس من الحروب ولا حرب في هذا الوطن، يهاجر الناس بسبب الجفاف، وما زال ضرع بقرتنا يدر لبنا"(7).

إنه وضع يعج بالتناقضات يحيل من جهة على اغتراب الانسان داخل وطنه خاصة حين يتيقن أن "ضرع بقرتنا يدر لبنا" وهو لا ينعم بمذقة منه، فهذا الاحساس بالغربة هو الذي يدفع به إلى الارتماء في المجهول واختيار الموت الحقيقي بدل الموت المعنوي، الموت السريع بدل الموت البطيء، كما يحيل هذا الوضع من جهة ثانية على بؤس هذا الانسان وسلبيته وهو يختار الطريق الأصعب لتحقيق ذاته، بدل أن يخوض معركة التنمية فيطالب بحقوقه ويؤدي في المقابل واجباته، إنه لم يستطع التعبير عن وطنيته وفعاليته داخل هذا الوطن فظل صفرا على يسار الأرقام، وهي صورة نستشفها من خلال قول السارد "لا الرخاء يعم البلاد ولا الناس يشتكون الغلاء". إنها صورة للإنسان السلبي الذي يعيش هملا ولا يبالي بما يموج حوله، كل همه أن يشبع شهواته ورغباته بغض النظر عن مصدرها وعن الطريق الموصل إليها، وتتأكد هذه الصورة في موضع آخر من خلال قول السارد "شاب يرتدي أفخر الثياب ولو على حساب قدرة أسرته...ومع ذلك يفكر في الرحيل"(8). فطبيعي أن يفكر هذا النموذج من المواطن في الرحيل ولا يأبه لعواقبه، ما دام لم يفكر في أن يحيا

حياته الطبيعية داخل وطنه، وما دام فقد مروءته وكرامته وتجرد من وطنيته مقابل حلم أقرب ما يكون إلى الهولامية.

وسواء أكانت الهجرة من قبل النموذج الأول المغترب أم الثاني المستلب فهي تعطي صورة سلبية عن الوطن، تخدش كبرياءه وتحط من منزلته بين الدول، إذ لا يعقل أن تبقى ثروة الوطن الحقيقية وهي شبابه عرضة للتيه ومآلا للمجهول، فلا بد من إيجاد الحلول الناجعة لتأمين حياته من خلال فتح الآفاق أمامه وإدماجه في الحياة الاجتماعية من خلال تكوينه وتعليمه

2- تحولات الهجرة:

إن الانعطاف عن الشيء والتحول عنه يكونان حسب الطبيعة والمنطق نتيجة فقدان الأمل في بلوغ أهدافه، وجني النتائج المتوخاة منه، والهجرة نحو الشمال سواء أكانت قانونية أم سرية لم يكن من هدف وراءها سوى تحسين الأوضاع المعيشية والاجتماعية لدى المواطن المغربي وتحقيق الرفاه المادي، هذه الأوضاع التي لم تكن بأحسن حال في الضفة الأخرى، وبخاصة الجارة إسبانيا التي تحتضن حقولها ومزارعها عددا كبير من المهاجرين المغاربة، فقد عرفت تراجعا اقتصاديا بان أثره على هؤلاء المهاجرين وحتى على مواطنيها الأصليين، فلم تعد بذلك جنة الله في أرضه التي تستقطب الباحثين عن النعيم الدنيوي، كما أن التطور التكنولوجي الذي عرفته الدول المستقبلة والذي سخرته في مراقبة الحدود والأوراق الثبوتية حد من الهجرة السرية وصعب مأمورية المرشحين لها.

لم يجد هؤلاء المهاجرون بعد ذلك بدا من تغيير وجهتهم وتجديد طموحهم، هذا الطموح الذي اصطدم بسماسرة من نوع آخر يختلفون عن أولئك الذين يبسطون سيطرتهم

على ثروات الوطن ويستنزفون خيراته المادية والبشرية، فلم يفرقوا بين الاتجار في السلع والثروات، والاتجار في البشر. سماسرة استغلوا هذه المرة الفراغ الروحي والخواء الثقافي للمواطن المغربي الذي أنهكه الجهل والأمية، فاقتادوه في يسر إلى مواطن وجهات توفر له بدل الغنى المادي الغنى الروحي حسب زعمهم، فاقتنع بأن ما كان يبحث عنه في الشمال زائل فان، أو هو من أوساخ الدنيا، وبذلك فعليه أن يولي وجهه نحو الشام حيث النعيم مقيم ودائم، يقول السارد: "إن الشباب لم يعد يهاجر نحو اسبانيا بحثا عن المال، إنما تحولت وجهته إلى الشام بحثا عن صكوك الغفران"(9).

وفي النهاية، فكلا الصنفين من هؤلاء السماسرة هم باعة للوهم، الأول يبيع وهما ماديا يتمثل في رغد العيش الدنيوي، والثاني يبيع وهما روحيا يتمثل في رغد العيش الأخروي، وهم معا فاسدون مفسدون خائنون سفهاء بلهاء كما يصفهم السارد، زرعوا اليأس في نفوس الشباب ليبيعوا له الوهم بعد ذلك.

إن السؤال الذي يثير نفسه في هذا المنحى الجديد الذي اتخذته الهجرة، وكما يروج له سماسرتها الجدد هو: هل الوصول إلى الجنة يسير والطريق إليها يوازي الوصول إلى إسبانيا أو باقي دول الاستقبال؟ فلا شك في أن السعي إلى الجنة والهجرة إلى الله سيمر عبر طرق معقدة، تبدأ بشد الرحال إلى الشام وتقديم فروض الطاعة والولاء لأئمة يعتقد أنهم يملكون مفاتيح الجنان، ويمنحون تأشيرات الدخول إليها والنهل من سلسبيلها والفوز بحورياتها(10). هؤلاء الأئمة جعلوا لهم أتباعا ومريدين في كل بقاع العالم، وانتظموا داخل منظمات ذاع صيتها، منها داعش والقاعدة...وبالوصول إلى هناك تسهر هذه المنظمات على تدريب المهاجرين على التدمير الذاتي والموت، وتلقيحهم بأفكار وثقافة تجعل من الموت "ليس نهاية للحياة، إنما هو تحرير وغسل للذات من أدران الدنيا وقذارتها...إن الموت قدر

محتوم...إنما الفرق بين موت هذا وذاك فيما بعد الموت، فيما سيناله الراحل...فأن تهاجر إلى الله فمعناه أنك تسعى إلى جناته الواسعة...أما أن تكون هجرتك للبحث عن اليورو وشقراوات الكفر في مواخير الكفار...فنصيبك...سيكون التلظي بما أعد لهذا الصنف من الجاحدين"(11).

وبعد أن يتشبع المهاجر بهذه الأفكار، ويتم غسل دماغه وتدريبه على استعمال السلاح يعود إلى نقطة الانطلاق حيث بوابة الجنة التي يفرض عليه عبورها ممارسة أعمال إجرامية، يعتقد أنها قضاء على الكفر ونصرة للإسلام وجهاد في سبيل الله. وليس مهما أن يقضي على الآخرين ويمزقهم أشلاء أو يقضي هو، فالأمر سيان وكلا الطريقين يؤديان إلى الجنة. بهذه الطريقة اللعوب والملتوية، وبهذه الطرق الإجرامية يصور الحاج "الهندا" وأمثاله من الذئاب البشرية الجنة بعد أن يفترسوا المهجرين إليها افتراسا.

ولم يكن الترويج للجنة والإيهام بها إلا إغراء وطعما لعدد من الشباب أمثال المكي الذين ضاق بهم الوطن بما رحب، وطن يتهارش خدامه على ثرواته وأمواله فما شبعوا، لأن ما ينهبونه لا يتعدى في اعتقادهم "جوج فرنك" في وقت يطوي فيه الجوع بطون آلاف المواطنين طيا، هؤلاء أصبح من اليسير الإيقاع بهم في حبال المنظمات الارهابية على اختلاف تلاوينها، وأصبح نعيم الجنة الموعود كما يصور لهم تعويضا لهم عن نعيم الحياة المفقود في وطنهم، حياة وعمر لا يريدون أن يضيعا مرتين، فإذا كان قد سلب منهم في الحياة الدنيا فهم يطمعون أن يحيوه في الآخرة.

ولكي يسهل على هؤلاء السماسرة الجدد التغرير بضحاياهم، ارتدوا عباءة الدين واتخذوه تقية لهم من كل شبهة، ومثال ذلك الحاج "الهندا" إمام مسجد البر الذي شاع ورعه وتقواه بين عامة الناس وخاصتهم، هذا الذيوع دفع السارد إلى التساؤل: "ألا تعلم

الجهات الوصية بهذا السلوك؟ أليست هي من تولت تعيين هذه العينة من الدخلاء؟ أم أنها تستعملهم دروعا منومة لتمرير ايديولوجيتها..."(12). ففيما يخص استغلال المنابر لزرع الأفكار المتطرفة فهو في حد ذاته استغلال لوضعهم الاعتباري في الحقل الديني وللثقة التي يجلبها لهم، للانطلاق في القيام بأعمال شيطانية، وهذا حال المتدينين وأشباه المثقفين عموما الذين لا يعتنقون الدين عن اقتناع، ولا يعتلون المنابر لأداء رسالة تربوية وتهذيبية، ولا يحملون صفة المثقف إخلاصا لمبادئ وقيم انسانية. فأولئك الذين يسمحون لأنفسهم أن يكونوا أبواقا وقطع شطرنج تحركها أيدي المصالح سرعان ما ينقلبون من خدمة مصلحة الجهات التي تستغلهم إلى خدمة مصلحتهم الشخصية، وما دام تدينهم مزيفا وثقافتهم ضحلة فهم لا يتورعون عن التحالف مع الشيطان، وهذا حال الحاج الهندا الذي استغل طهارة المنبر ليخدم تنظيم داعش الإرهابي كما صرح بذلك المكي لهيئة المحكمة أثناء محاكمته قائلا: "الحاج الهندا سيدي القاضي ومن يكون الهندا هذا، إنه إمام وخطيب تقي وورع يحب وطنه حتى النخاع عفوا إلى درجة مص دماء أبنائه ومص نخاعهم، ونفض جيوبهم، وغسل أدمغتهم، والإلقاء بهم في أتون الحروب والفتن، وهو يقول دائما اللهم نجنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن"(13).

1-الحرائق (رواية)- حسن عزماني- مطبعة نجمة الشرق- بركان- 2016- 163 صفحة
2-المصدر نفسه- ص: 7
3-نفسه- ص: 105 4-نفسه- ص: 58
5-نفسه- ص: 63 6-نفسه- ص: 126
7-المصدر نفسه والصفحة نفسها
8-المصدر نفسه والصفحة نفسها 9-نفسه- ص: 70
10-نفسه- ص: 122
11-نفسه- ص: 122 12-نفسه- ص: 111
13-نفسه- ص: 155- 156

صدر حديثا

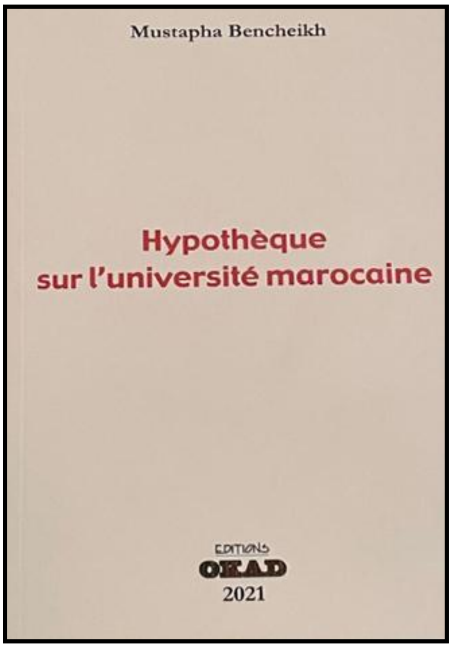
Mustapha Bencheikh
Hypothèque
sur l'université marocaine
EDITIONS
OKAD
2021

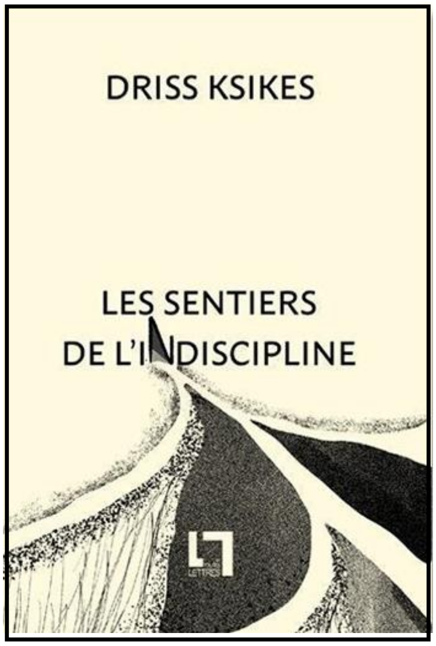
DRISS KSIKES
LES SENTIERS
DE L'INDISCIPLINE